الرواية والرُّواة

لا يخفى ان اللغة والشعر والاخبار والحديث لم تقع الينا الاَّ من طريق الرواية ولم يفضِ اليها الرواة الاَّ من طريق النقل وفي جميعها اقسام ولها شروط وطرق . وانا ذاكر من ذلك جملة مما وقفت عليهِ واستقريتهُ من خبر القوم واستخرجتهُ مما تقطعت على تحصيلهِ الاعناق وانطوت على حاصلهِ الاوراق

اما رواية اللغة والشعر فقد اقتحمت من الاعصر كفنا واما الحديث فهي فيهِ على رمق وانما بقي منها بُقيَّات . ولما وضع ابو الطيب اللغوي في القرن الرابع من الهجرة كتابهُ في مراتب النحويين انطوت لعينيهِ عشرة قرون من الزمن فانضمَّ عصرنا الى عصرهِ نقال يصنهما جميعاً " غلب الجهل وفشا حتى لا يدري المتصدر للعلم من روى ولا من روي عنهُ ولا من اين اخذ علمهُ وحتى ان كثيرًا من اهل دهرنا لا يفرقون بين ابي عبيدة وابي عبيد وبين الشيء المنسوب الى ابي سعيد الاصمعي وابي سعيد السكَّري او ابي سعيد الضرير ويحكون المسألة عن الاحمر فلا يدرون أهو الاحمر البصري او الاحمر الكوفي ولا يصلون الى العلم بمزية ما بين ابي عمرو بن العلاء وأبي عمرو الشيباني [1] وقد وصلنا الى كدر الكدر وانتهينا الى عكر العكر " . ونحن كما ترى لا فرق بين دهرنا ودهرهِ الاَّ ان كثيرًا من قومهِ كانوا لا يفرقون بين اسمين واكثر قومنا لا يعرفون واحدًا منهما واولئك كانوا يخلطون فيزعمون انهُ جرت مناظرة بين ابن الاعرابي والاصمعي وهما لم يجتمعا قط وهؤلاء اذا ذكرت لهم تلك المناظرة قالوا ان الفوز كان فيها لابن الاعرابي او نظروا الى موضع الاصمعي من الشهرة فقالوا ان الحجة كانت لهُ او وقفوا بينهما كما هو مذهب الكثيرين فقالوا الكلمة المشهورة " فيها قولان " وهم على كل حال يستنكفون ان يقولوا لا نعلم

أما لو أن جهلك عاد علمًا اذًا لنفذت في علم الغيوب
وما لك بالغريب يد ولكن تعاطيك الغريب من الغريب

وقبل أن يتحرَّر للقلم هذا البحث في الرواية وشروطها وما الى ذلك نأتي على طرف من اكرام الخلفاء للرواة ومعرفتهم موضع الحاجة اليهم وقصدهم في ذلك الى تثقيف اللسان وتوثيق الجامعة ثم ما كان من مطارحتهم الاخبار ومناقضتهم الكلام الى ما وضحت آثارهُ في دواوين ذلك

(١) للعلماء عناية بتحقيق اسماء الرواة واهل العلوم حتى انهم اختلفوا في اسم ابي عمرو بن العلاء على واحد وعشرين وجهًا

العهد ولطفت اخباره في سجلات تلك الايام حين كانوا يعدون النسب واخبار وجُمل الفقه من علم الملوك وكان الرواة يضعون الكتب الممتعة ويأوقرون فيها الليالي الطريلة لابناء الخلفاء يروُّونهم ما حملت من ذلك كالمختارات المنسوبة للمفضل الضبي[1]. قال ابن الانباري ان ابا جعفر المنصور تقدم اليه في اختيارها للمهدي كما وضع ابو عبيدة كتابهُ في فقه اللغة لتعليم الرشيد في خلافة ابي جعفر ايضاً. على انهُ لما ضعفت الدولة بعد ذلك كانت امثال هذه الكتب التي تقطر منها قلوب العلماء انما ترضع برسم الخزانة الملوكية فقط ...

روى ابو حاتم عن الاصمعي قال دخلت على الرشيد ومجلسهُ حافل فقال يا أصمعي ما اغفلك عنا واجفاك لحضرتنا. قلت والله يا امير المؤمنين مالاقتني بلاد بعدك حتى اتيتك. فامرني بالجلوس فجلست وسكت عني فلما تفرق الناس الاَّ اقلهم نهضت لاقيام فاشار اليَّ ان اجلس فجلست حتى خلا الموضع ولم يبقَ غيري ومن بين يديهِ من الغلمان فقال ياأبا سعيد ما معنى قولك مالاقتني بلاد بعدك. قلت ما امكنني يا امير المؤمنين وانشدت قول الشاعر

كفَّاك كف ما تليق درهماً جوداً واخرى تعطي بالسيف الدما

اي ماتمسك فقال هذا احسن وهكذا فكن. وقرنا في الملا وعلمنا في الخلا

وقال الرشيد مرة للمفضل الضبي اذكر لي بيتاً يحتاج الى مقارعة الاذهان في اخراج خبئهِ ثم دعني واياهُ فقال اتعرف بيتاً اولهُ اعرابي في شملتهِ هابٌ من نومتهِ كانما ورد على ركب جرى في اجنانهم الوسن فظل يستنفرهم بعجيهية البدو وتعجرف الشدو وآخرهُ مدفيٌّ رقيق غذي بماء العقيق فقال لا اعرفهُ قال هو بيت جميل

الا ايها الركب اليمام الا هبوا أسائلكم هل يقتل الرجل الحبُّ

ثم ادركتهُ رقة الشوق فقال :

فقال افتعرف انت بيتاً اولهُ اكتم بن صيفي في اصالة الرأي ونبل الفطنة وآخرهُ بقراط لمعرفتهِ بالداء والدواء قلت قد هوَّنت عليَّ فليت شعري باي مهر تمهر عروس هذه الخدر قال بانصافك وانصائك وهو بيت الحسن بن هاني

دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

(١) المشهور ان هذه المختارات للمفضل الضبي ولكن بعضهم يروي عن العباس بن بكار انهُ قال للمفضل ما احسن اختيارك للاشعار فلو زدتنا من اختيارك فقال والله ما هذا الاختيار لي ولكن ابرهيم بن عبد الله استترعندي فكنت اطوف واعود اليهِ بالاخبار فيانس ويحدثني ثم عرض لي خروج الى ضيعتي اياماً فقال لي اجعل كتبك عندي لاستريح الى النظر فيها فتركت عندهُ قمطرين فيها اشعار واخبار فلما عدت وجدتهُ قد علم على هذه الاشعار وكان احفظ الناس للشعر فجمعتهُ واخرجتهُ فقال الناس اختيار المفضل . اه

ومثل ذلك يروى عن المأمون وغيره. ولقد كان المأمون حريصاً على الاصمعي وهو بالبصرة ان يصير اليه فلم ينفعل واحتج بضعفه وكبره فكان يجمع المشكل من المسائل ويسيرها اليه ليجيب عنها.

وربما كانوا يرسلون في طلب الرواة للفظة اغلق عليهم صوابها او بيت من الشعر ذهب عنهم اسم قائله كما فعل الواثق حينما غنّت جارية بحضرته في قول العرجي

أظلومُ ان مصابكم رجلاً أهدى السلام تحية ظلمُ

فاختلف من كان بالحضرة في اعراب رجلاً فمنهم من نصبهُ وجعلهُ اسم ان ومنهم من رفعهُ على انهُ خبرها والجارية مصرة على ان شيخها ابا عثمان المازني لقنها اياهُ بالنصب فامر الواثق باشخاصهِ من البصرة. وكما بعث هشام في إشخاص حماد الراوية من بغداد لبيت خطر ببالهِ لا يعرف صاحبهُ وهو قول عدي بن زيد

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها ابريقُ

ومثلهُ كثير بل كانت رواية الشعر عندهم وهو ديوان العرب في موضع من النفس يكون نقصها بمقدار ما يتسع من فراغهِ. ويروى ان معاوية كتب الى زياد اذا جاءك كتابي فأوفد الي ابنك عبيد الله فأوفدهُ عليهِ فما سألهُ عن شيء الاَّ انفذهُ لهُ حتى سألهُ عن الشعر فلم يعرف منهُ شيئاً فقال ما منعك من روايتهِ قال كرهت ان اجمع كلام الله وكلام الشيطان في صدري. قال اعزب والله لقد وضعتُ رجلي في الركاب يوم صفين مراراً ما يمنعني من الانهزام الاَّ ابيات ابن الاطنابة حيث يقول :

ابت لي عفتي وابى بلائي واخذي الحمد بالثمن الربيحِ
واعطائي على الاعدام مالي واقدامي على البطل الشجيحِ
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي او تستريحي
لادفع عن مآثر صالحاتٍ واحمي بعد عن عرض صحيح

هذا الى غيره مما لو استقصي لكان كتاباً برأسهِ. وحسبك من عناية الخلفاء برواية اللغة والشعر وغيرها ان لنعرّف ذلك في مواقع اقوالهم ونتنسمهُ من نفحات الفاظهم فنرى كيف يتحرون اصابة السر من الكلام والوقوع على اصح وجوه الاستعمال مما لا يتأتى الاَّ عن رواية ودراية. قال ابن خالويه دخلت على سيف الدولة بن حمدان فلما مثلت بين يديهِ قال لي اقعد ولم يقل اجلس فتبينت بذلك اختلافهُ بأهداب الادب واطلاعهُ على اسرار كلام العرب وانما يقال في المختار عند اهل الادب للقائم اقعد وللنائم والساجد اجلس. ولذلك تعليل بديع ذكرهُ بعضهم وهو ان القعود الانتقال من العلو الى السفل ولهذا قيل لمن اصيب برجليهِ مقعد والجليس هو

الانتقال من السفل الى العلو ومنهُ قيل لخبر جلساء لارتفاعها وقيل لمن اتاها جالس

والقوم وان لم يكونوا كلهم على هذه الصفة من النسب وفي تلك المنزلة من البصر بالكلام وسمو الطبيعة ولكن جميعهم كانوا سواء في اكرام الرواة والعلماء والمتوسمين بالادب الاَّ ما يكون من اختلاف في نتائج اكرامهم كتفاوت مقادير المنح والهبات والاقبال على واحد وبسطهِ باكثر مما يكون لسواهُ . والرواة مع ذلك يجلسون الامر دون قدرهم ويقيسون حالة الزمن على مبلغ علمهم فيرون ان من لم يأخذ بحظهم من الرواية ويزاحمهم في موضعهم من الاشراف ليس شيئاً ولا على شيء وذلك من طغيان العلم حين يطغى

وما كان الناس يومئذٍ وهم على دين ملوكهم بأقل رغبة في مشاهير الرواة واقبالاً عليهم وتوقيراً لهم حتى قال ابو عمرو لو امكنت الناس من نفسي ما تركوا لي طوبة يعني لازدحموا عليهِ حتى يترك حائط البيت مكانهُ من مضايقتهم

لا جرم ان الرواية هي العلم المستطيل [1] لا تمتد لهُ الاَّ الصدور الواسعة وانَّا لنرى من اخبار الرواة والعلماء في الحفظ ما لا نصدق انهُ كان او يكون ولكن ذلك ليس بعجيب ممن انفق ايامهُ في تنمية الحافظة وفتق الذهن وكانت الحاجة دافعة الى ذلك فانصرفت كل قوى نفسهِ الى الاستحضار والاستظهار

وقد كان علماء السنَّة لا يعدون محدثاً الاَّ من يروي عشرين الف حديث من حفظهِ وفيهم من بلغت روايتهُ اربعين الفاً او تزيد واكثرهم مع ذلك امام في الفقه واللغة والشعر بل ليس براوٍ عندهم من لم يرو من اللغة . وهم انما كانوا يقيمون آراءهم في غريب الاثر ومشتبه الحديث بما يحتجون بهِ من الشعر مروياً بسنده او مأخوذاً عمن يسنده . وهذا الشافعي اخذ عنهُ بعض الرواة شعر الهذليين وهو مع ذلك مستنبط المذهب المعروف من الكتاب والسنة ويروى عنهُ من قوة الحافظة ما لا يتعلق بهِ التصور حتى قيل انهُ تصفح كتاباً لابي حنيفة ذات ليلة فاصبح وقد اتى عليهِ حفظاً وبلغهُ وعياً

والرواية مُرادفة الحفظ بمعنى اخص فكل راوية حافظ وليس كل حافظ براوية لان الاخذ قد يكون من صحيفة منقطعة السند او لا سند لها ولا ثقة بهِ لانهم لا يقبلون من صحيفة ولا يأخذون عن صحفي وكانوا يقولون

ليس يعلم ما حوى القمطرُ ما العلم الاَّ ما حواهُ الصدرُ

وقد قال المعري في اصل التصحيف : هو ان يأخذ الرجل اللفظ من قراءتهِ في صحيفة ولم

(١) وقفت على هذه التسمية في تاريخ ابن خلكان ذكرها في ترجمة ثعلب

يكن سمعهُ من الرجال فيغيّرهُ عن الصواب وقد وقع فيهِ جماعة من اجلاّء ائمة اللغة والرواة لان صدر الرواية ليس ارضاً بعالمها حتى يرد كل حرف الى منطق اهلهِ

ويؤثر عن ابي عمرو بن العلاء وهو من شيوخ الاصمعي انهُ سئل عن بيت من الشعر فقال مات الذين يعرفون هذا . وفي اللغة والشعر شيءٌ كثير يتوقف على الرواية فاذا لم يسند الى اهلهِ تراوح بين الخطإ والصواب لا تدري هو من ايهما لان موضع الفاصل بينهما خلاء

واكثر ما يكون ذلك في الاسماء الجامدة كاسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه والاعلام فان الفطنة لا تنفذ فيهِ كما تنفذ في المشتق . وقد قرئ مرة على الاصمعي في شعر ابي ذُؤيب قولهُ "باسفل وادي الدير أُفرد حجشها" . فقال اعرابي حضر المجلس ضلّ ضلالك ايها القارئ انما هي ذات الدير وهي ثنية عندنا . فاخذ الاصمعي بقولهِ فيما بعد

قدمنا ان الحفظ مفتاح الرواية وانها ترادفهُ بمعنى اخص وان القوم خاضوا من لجج المحفوظ ما يغرق الواحد منا في ساحلهِ من ذلك ان ابن دُريد كانت تُقرأ عليهِ دواوين العرب فيسابق الى اتمامها من حفظهِ وانهُ تصدّر في العلم ستين سنة قائماً في وظائف الحفّاظ[1] واملى كتاب الجمهرة في اللغة بفارس والبصرة من حفظهِ لم يستعن عليهِ بالنظر في شيءٍ من الكتب على ما قالوا الاّ في الهمزة واللفيف . وما ابن دريد الاّ واحد من قوم

وعن ثعلب انهُ لازم ابن الاعرابي بضع عشرة سنة ما رأى في يدهِ كتاباً قط . وهذا حماد الراوية اول من جمع السبع الطوال من اشعار العرب والذي اخذ عنهُ كل ما روي من شعر امرىء القيس الاّ قليلاً اخذ عن ابي عمرو بن العلاء . قال لهُ الوليد بن يزيد الاموي يوماً وقد حضر مجلسهُ بما استحققت هذا الاسم فقيل لك الراوية فقال باني اروي لكل شاعر تعرفهُ يا امير المؤمنين او سمعتَ بهِ ثم اروي لأكثر منهم ممن تعترف انك لا تعرفهُ ولا سمعت بهِ ثم لا ينشدني احد شعراً قديماً ولا محدثاً الاّ ميزت القديم من المحدث . فقال لهُ فكم مقدار ما تحفظ من الشعر قال كثير ولكني أُنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة

---

(١) وظائف المحافظ في اللغة اربعة عدها السيوطي في المزهر احدها وهي العليا الاملاء وطريقتهم فيهِ كطريقة المحدثين يكتب المستملي اول القائمة مجلس املاهُ شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ثم يورد الملي باسنادهِ كلاماً عن العرب والفصحاء فيهِ غريب يحتاج الى التفسير ثم يفسرهُ ويورد من اشعار العرب وغيرها باسانيدهِ ومن الفوائد اللغوية باسناد وغير اسناد ما يختارهُ

وثانيها الاتقان ومن آداب المتقن في اللغة ان يقصد القرى والاباحة والافادة والوقوف عند ما يعلم وقول لا ادري فيما لا يعلم وسؤال غيرهِ ان عرف ان عندهُ من ذلك علماً . والثالثة والرابعة الرواية والتعليم ومن آدابها الاخلاص وان يقصد بذلك نشر العلم واحياءهُ والصدق في الرواية والتحري والنصح في التعليم اذ محصلاً

كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية ومن شعر الاسلام قال سأمتحنك في هذا ثم امرهُ بالانشاد فانشد حتى فجر الوليد ثم وكل بهِ من استحلفهُ ان يصدقهُ عنهُ و يسترفي عليهِ فانشدهُ الفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية . وقد رأيت بعض الادباء ينكر ان يكون هذا الخبر صحيحاً لان حماداً كان يصنع الشعر ولانهُ يكاد يستحيل ان يعي في صدرهِ كل ذلك . ولعمري ان هذا من ايسر خطبهم . اما امر الوضع فسيجيء الكلام عنهُ . واما كثرة الشعر فقد اخبرني خاتمة الحفاظ المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطي الشهير ان مما وقف عليهِ كتاباً للعسكري اختار فيهِ الفاً وخمسمائة قصيدة من شعر العرب وحدهم . هذا على ما نعرف من انطواء الزمن على كتب القوم وعبث الايام بآثار الحفاظ والرواة حتى ان ما وصل الينا منها ليس غير عنوان من كتاب

وانظر اين مبلغ ذلك مما رواهُ الاصمعي قال جاء فتيان الى ابي ضمضم بعد العشاء فقال لهم ما جاء بكم ياخبثاء قالوا جئناك تحدث . قال كذبتم بل قلتم كبر الشيخ وتبلغتهُ السن عسى ان نأخذ عليهِ سقطة فأنشدهم لمائة شاعر كلهم اسمهُ عمرو . قال الاصمعي فعددت وخلف الاحمر فلم نقدر على اكثر من ثلاثين . وخلف هذا هو الذي يقولون فيهِ ما ازدحم العلم والشعر في صدر احد ازدحامهما في صدر خلف

ولتفاضل الرواة في سعة المحفوظ وبعد الاشراف اسباب كان يأخذ احدهم عمن هو اكثر رواية من غيرهِ او يتفق لبعضهم من السماع مالا يتفق للآخر ولكن معظمها راجع الى المبالغة في التحري والتثبت في النقل فلا يروي بعضهم مالم يسمع وما شك فيهِ وما كان ضعيفاً او يهجر ما لا يتفق مع ادبهِ ولا يلائم ذمتهُ وبذلك ظهر الاصمعي على ابي عبيدة عند الفضل بن الربيع حين سمى اعضاء الفرس من ناصيتهِ الى ان فرغ منهُ وانشد ما قالهُ العرب في كل عضو بعد ان قال ابو عبيدة ان هذا من شأن البيطار مع ان كتبهُ في الخيل عشرون مجلدة وكتب الاصمعي فيها مجلدة واحدة . وهو كان لا يروي هجاء ولا فحشاً ولا ما يجهل مدلولهُ حتى قالوا انهُ يجيب في ثلث اللغة وابو عبيدة في الثلثين وابو مالك في الجميع

ولو شاء الاصمعي لغبَّر في وجه صاحبيهِ فانهُ كان من سرعة التناول وقوة الذاكرة بحيث ترى فيما رواهُ ابو بكر النحوي قال : لما قدم الحسن بن سهل العراق قال احب ان اجمع قوماً من اهل الادب فاحضروا ابا عبيدة والاصمعي ونصر بن علي الجهضمي وحضرت معهم فابتدأ الحسن فنظر في رقاع بين يديهِ للناس في حاجاتهم فوقَّع عليها فكانت خمسين رقعة ثم امر فدفعت الى الخازن واقبل علينا فقال قد فعلنا خيراً ونظرنا في بعض مانرجو نفعهُ من امور الناس والرعية فناخذ الآن فيما نحتاج اليهِ . فالتفتنا في ذكر الحفاظ فذكرنا الزهري وقتادة

ومررنا فالتفت ابو عبيدة فقال ما الغرض ايها الامير في ذكر من مضى و بالحضرة حاضر من يقول ماقرأ كتاباً قط فاحتاج الى ان يعود فيهِ ولا دخل قلبهُ شيءٌ فخرج عنهُ فالتفت الاصمعي وقال انما يريد في بهذا القول ايها الامير والامر في ذلك على ماحكى وانا اقرب اليك قد نظر الامير فيما نظر فيهِ من الرقاع وانا اعيد ماعيبها وماوقّع بهِ الامير على رقعة رقعة قال فامر وأُحضرت الرقاع فقال الاصمعي سأل صاحب الرقعة الاولى كذا واسمهُ كذا فوُقع لهُ بكذا والرقعة الثانية والثالثة حتى مر في نيف واربعين رقعة . فالتفت اليهِ نصر فقال ايها الرجل أبقِ على نفسك من العين

ولو افضت في الايراد من مثل ذلك لتعجب القراءة وان ما يروى عن النسّابين كدغفل وعبيد والكلبي من انسابهم في النسب وتقلبهم في اجيال الناس وانطواء صدورهم على ما خفي من اسماء الرجال وانساب القبائل وما ستر عليهِ من مغامزها لاعجب مما مرَّ بك وما هو الاَّ غيض من فيض ولكني انما كتبت هذا المقال على شرط الايجاز والتسهيل

وقد كان من اولئك القوم من اذا ظفر بالشعر او الخبر كتبهُ على ذراعهِ ومنهم من كان يلتقط العظام فيكتب عليها وبعضهم كان ينسخ بالليل حتى ينقطع ظهرهُ كل ذلك نهماً الى العلم وحرصاً على الاستزادة وتعلقاً بالفائدة

واعلم ان من اللغة فصيحاً وهو ما لم يُنكر على العرب وضعيفاً وهو ما انحط عن درجتهِ ومنكراً وهو اضعف منهُ واقل استعمالاً والشرط فيهِ ان ينكرهُ ائمة اللغة الذين يعرفون وجوه الكلام ومتروكاً وهو ما كان قديماً من اللغات ثم ترك واستعمل غيرهُ كاسماء الايام والشهور[1] ومذموماً كبعض لغات نطقوا بها لأن اكثر ما دوّنوهُ انما هو لغة قريش وقد كان العرب يحجون البيت ويحضرون الموسم في كل سنة فكانت قريش تسمع منطق الحوشة والخاصة منهم وتنظر في مختلف لغاتهم فما استحسنوهُ نطقوا بهِ ولذلك اشتهرت لغتهم وبقيت على الايام لانها الفصحى

ثم ان في اللغة نوادر وحُوشيًّا وشواذ وغرائب والرواية قد تناولت كل ذلك وبهِ انقسمت الى اعتبارات مختلفة . وقد اتفق الرواة على ان اللغة والحديث يجريان من واد واحد غير ان علماء الحديث اكثر تورعاً في البحث وأضيق مساغاً للقبول واشد تمحيصاً للرواية وهم قد جعلوها علماً برأسهِ اطلقوا عليهِ اسم (مصطلح الحديث) ستأتي البقية مصطفى صادق الرافعي

---

(١) قال ابن دريد في الجمهرة اسماء الايام في الجاهلية اهبيت شيار والاحد اول والاثنين اهون واوهد والثلاثاء جبار والاربعاء دبار والخميس مونس والجمعة عروبة واسماء الشهور المؤتمر وهو المحرم وصفر وهو ناجر وشهر ربيع الاول وهو خوان وربيع الآخر وهو وبصان وجمادى الاولى الحنين وجمادي الآخرة رنى ورجب الاصم وشعبان عاذل ورمضان فائق وشوال وعل وذو القعدة ورنه وذو الحجة برك . وللعلماء اقوال مضطربة في تحقيقها وضبطها